المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الحادي والخمسين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩١٧ — الموافق ١٣ شوال سنة ١٣٣٥

سياحة ذرّة ماء

في العصر الثاني

لما نجوت من المنطقة الاستوائية انتقلت الى الاقاليم الشمالية وكان ذلك العصر عصر الدبابات الكبيرة فان تلك الحيوانات كانت متسلطة على الارض كأن ليس فيها غيرها . ثم كان فيها بعض الطيور والحيوانات اللبونة ولكنها كانت صغيرة جدًّا في جنب الدبابات البرية والبحرية . وقد اتصلت انا بهذه الحيوانات فاني كنت يومًا على خوص جريدة من جريد النخل فاذا بحيوان طوله ستون قدمًا يمشي واثبًا على قدميه وهو المسمى باسم بروتوساوروس اتهم الجريدة كلها وازدردني معها . ولا تسل عن مقدار غيظي لمَّا وجدت نفسي في معدته . ثم امتصني جسمهُ ودرت في دمهِ ووصلت مرة الى ذراعهِ ومرة الى رجلهِ . ثم قُتل والتهمت حيوانات اخرى لحمهُ فدخلت جوف واحد منها وهو المسمَّى دينوساوروس وكان اعظم الدبابات صولةً في ذلك العصر لاسيما وانهُ من الحيوانات المفترسة

ولو كانت كتابة القصص من شأني لقلت انني وصلت مرةً الى جسم جرادة اكلها طائر كبير من ذوات الاسنان (بتروداكتيلوس) ودخلت مرةً اخرى دماغ طائر من اقدم الطيور وعين طائر آخر ولكن ذلك لم يحدث وليس من شأني ذكر غير الحق فانني لم ادخل اجسام تلك الحيوانات ولكنني رأيتها مرأى العين

وبعد ان تقلَّبتُ عليَّ شؤون مختلفة عدت الى الاوقيانوس الاتلنتيكي في العصر الطباشيري او عصر الدبابات الجديد وهنا صار عليَّ ترسيب الصخور الطباشيرية اي انني فعلت الجزء الصغير المختص بي فاني كنت مقيمة في لحم حيوان مكرسكوبي في صدفتهِ كس

وكان هناك ملايين وملايين من هذه الحيوانات الصغيرة طافية في ماء الاوقيانوس ومتى ماتت وبقي لحمها غرت اصدافها في الماء رويداً رويداً الى ان ترسب في قاع البحر طبقة بيضاء وهي الطباشير - والصدفة التي كنت في حيوانها رسبت قرب مدينة بلفست بارلندا

وبعد زمن طويل دخلتُ جسم حلزونة كبيرة من النوع ذي الثقوب Foraminifera الذي تكونت منهُ الصخور الصدفية المدوَّرة Nummulite كالصخور التي بني منها الهرم الاكبر من اهرام مصر في شأن يذكر في بناء هذا الهرم كما لو كنت في دم الفرعون الذي بناهُ او دم احد اعوانهِ

في دم الحيوانات اللبونة اي ذوات الثدي

والآن اتخطى مليونين او ثلاثة ملايين من السنين وانتقل في كلامي الى زمن الحيوانات اللبونة في العصر الثلاثي

لما ارتقت الاحياء على الارض اتسع المجال امامي فان الحيوانات الراقية كانت حارَّة الدم فلقيت فيها ما لم القهُ قبلاً في الحيوانات الهلامية الاجسام والدبابات الباردة الدم

كنت ذات يوم في غدير صغير في واحة بقلب اسيا واذا بحيوان كبير من نوع الجمل غبَّني فبقيت اياماً في كرشهِ او معدتهِ التي يحفظ فيها الماء واخيراً امتصَّ جسمهُ ما في معدتهِ وامتصني معهُ فسرت الى دمهِ الحار ودخلت خلية من خلاياهُ الحمراء ودرت في جسمهِ كلهِ مع دمهِ الوقَّاد من المرات كأني في نهر فكنت انا وغيري من الخلايا الحمراء والمصل الذي يحيط بنا نتنقل في اوعية جسمهِ واذا وصلنا الى الشريان الرئوي تفرقنا في شعبهِ الكثيرة المتوزعة في الرئة الى ان تصل الى انابيب دقيقة مكركبية شعرياتها منتشرة على سطح الخلايا الرئوية وهناك كانت خلايا الدم الحمراء التي في الاوعية الشعرية تلفظ بعض اكسيد الكربون الثاني الذي كانت تحملهُ متحداً بالحديد وتأخذ اكسجيناً بدلاً منهُ فيتغير به لونها ويصير احمر زاهياً بعد ان كان قاتماً - ويحدث تبادل هذين الغازين بواسطة غشائين او احد جدار الوعاء الدموي والثاني جدار الخلايا الرئوية - قد اخذنا ما اخذنا من الاكسجين مررنا في الاوعية الشعرية الى اوعية اوسع منها ومن هذه الى اوعية اوسع فاوسع الى ان وصلنا الى الاوردة الرئوية وهذه افرغتنا في وعاء واسع كالكيس يسمَّى الأذينة اليسرى من اذينتي القلب وانتقلنا منها الى وعاء آخر متصل بها وبينهما باب له ثلاثة مصاريع وجدار هذا الوعاء المسمى بالبطين الايسر ثخين متين فانقبض بعنةٍ ودفعنا سريعاً في الثوب كبير اسمهُ

الاورطى ودرنا من هناك ثانية في جسم الحيوان فان هذا الانبوب يتشعب الى الوف من الشعب او الاوعية المسماة بالشرايين وهذه الى اوعية ادق منها الى ان تصل الى الاوعية الشعرية . فالشرايين تحمل الدم بعضهُ الى العضلات وبعضهُ الى المعدة وبعضهُ الى الدماغ وبعضهُ الى عضلات القلب نفسهِ الذي يفعل فعل المضخة في امتصاص الدم ودفعهِ . وفي كل جزء من جسم الحيوان مهما كان صغيراً اوعية دموية لجلب الدم واخذهِ ما عدا الشعر والحوافر

فكان عملي والحالة هذه حمل الاكسجين وتوزيعهُ في جسم ذلك الجمل فمرةً كنت احملهُ الى دماغهِ ومرةً الى عضلاتهِ ومرةً الى عينيهِ او عظامهِ وكان مصل دمهِ يحمل ايضاً الغذاء الى كل اجزاء جسمهِ آخذاً اياهُ من معدتهِ وامعائهِ من الطعام الذي يأكلهُ

وقد كانت الخلايا الحمراء كالقوارب الصغيرة السابحة في نهر الدم مكلفة حمل الاكسجين الذي تحيا بهِ مادة الجسم . وهذا الاكسجين يحرق الخلايا التي تتفتت فيتكوَّن من احتراقها اكسيد الكربون الثاني وتتولَّد منهُ حرارة الجسم . ثم تحمل الخلايا اكسيد الكربون الثاني بدل الاكسجين وتعود بهِ الى الرئتين ولذلك فاينما انتهى بنا السير في اواخر الاوعية الشعرية كنا نبدل ما معنا من الاكسجين باكسيد الكربون الثاني وننتقل الى الاوردة ونعود بها الى ان نصل الى وعاء كبير جدًّا اسمهُ الوريد الاجوف وهو يصبُّ في الأذينة اليمنى من اذينتي القلب ولننتقل منها بباب غريب الى البطين الايمن من بطيني القلب فينقبض حالاً ويدفعنا الى الشريان الرئوي الذي ابتدأت منهُ في الكلام على دورتنا الدموية

ونحن ذرات الماء يتكون منا كل مصل الدم وخلاياهُ تقريباً وقد كنت مراراً في المصل ومراراً في الخلايا . ولم اكف عن العمل مدة وجودي هنا وهو حمل الغذاء من القناة المضمية والاكسجين من الرئتين الى كل خلية في جسم الجمل ثم الرجوع بالفضول الى الرئتين . وكان الدم يدور بنا دورة كاملة كما تقدم كل نحو نصف دقيقة وتقضي اكثر هذا الوقت الوجيز في الاوعية الشعرية حيث ننتقل من جهة الى اخرى ونبدل حمل ولذلك كنت من السوابح او سفن الحمل في دم ذلك الجمل . ولقد صادفت في السنين التي قضيتها في دمهِ من المسافات ما لو ضمَّ بعضهُ الى بعض لبلغ الوفاً من الاميال وقد بقيت في جسمهِ لم اتخطَّهُ حتى خُيِّل لي انهُ قضي عليَّ ان ابقى هناك ابد الدهر . ولكن كل ما لهُ بداية لهُ نهاية في ذات يوم رأيت نفسي أُدفع بسرعة انا وسائر ذرات الماء اخواتي من قلب ذلك

الجمل لانهُ كان يعدو سريعاً وبعد قليل وقف القلب بغتة لان الجمل مات فان بيرٌ . اي اسدٌ هندي طاردهُ ثم وثب عليهِ وقتلهُ بهِ

وشرب البير جانباً من دم الجمل فدخلت امعاءهُ مع الدم والقول بالاختصار انني درت في جسمهِ مع دمهِ مدة سنة او سنتين عبدة مستغرة لحمل الضناء والاكسجين كما كنت في دم الجمل الاَّ ان سيري هنا كان اسرع من سيري هناك وكانت الحرارة التي تحيط بي اشد

وذات يوم التقى البير بفيل كبير ونشب بينهم القتال حتى اذا دنا البير من الفيل ركع الفيل عليهِ فسحق عظامهُ وانشقت بعض أوردتهِ واريق دمهُ على الارض وانا فيهِ ثم جف الدم فصعدت مع بخارهِ الى الهواء

رودان العالم

ان ما قصصتهُ حتى الآن لا يشمل كل قصتي لانني بلغت طبقات الجو مراراً كثيرة وطفت في الغيوم وخرقتني اشعة الشمس لتكوين قوس قزح واشتركت في العواصف ووقعت في الابحر والبحيرات مراراً كثيرة وليس في الارض نهر كبير الاَّ زرتهُ وامتزجت بمائهِ . ووصلت مرة الى بحيرة فكتوريا نيانزا وجريت في ماء النيل ومررت على مقربة من الاهرام فتذكرت اني اشتركت منذ ملايين من السنين في تكوين الصخور التي بُنيت منها

ومن الاماكن الغريبة التي زرتها لبن النارجيل (جوز الهند) ولبن الفنقر الحيوان الاسترالي المشهور . ولما كنت في جوزة النارجيل وصل اليها قرد وفضخها وشرب لبنها فدخلت جسمهُ وانتقلت من معدتهِ الى دمهِ وعضلاتهِ ودماغهِ كما كنت في جسم الانسان والجمل والبير . واغرب من ذلك انني كنت مرة في استراليا فوصلت الى بيضة الحيوان ذي المنقار المسمَّى بلاتيبوس ورأيت انهُ من الحيوانات اللبونة لان لهُ شعراً ودمهُ حار ولكنهُ باض بيضة وكنت فيها فاستغربت ذلك لانني لم اَرهُ من قبل وجعلت اضحك واقهقهُ الى ان مدرت البيضة

ولما كنت في استراليا صعدت في جسم شجرة من شجر اليوكالبتوس مع عصارتها الى ان بلغت اعلى اغصانها وكان ارتفاعهُ ٣٠٠ قدم . وكان ذلك اعلى مما بلغتهُ وانا في ورقة شجرة من اشجار كيفورنيا ولما تبخرت من تلك الورقة وصلت الى رقعة من رقع الثلج ووقعت على جبل عالٍ ولما ذاب الثلج جريت الى الاوقيانوس الباسيفيكي وبعد قليل شربني حيوان كبير حسبت انهُ سمكة كبيرة لانهُ كان في البحر بعيداً عن البر ولكنني وجدت دمهُ حاراً فاستنتجت انهُ من الحيوانات اللبونة ولو كان البحر مأواهُ وهو حوت كبير . وفي ذات يوم

كنت في الهواء الرطب الذي في رئتيه فصعد الى وجه الماء ونفخ نفخة قوية فدفعني الى الهواء بعنف شديد . وهذه هي المرة الاولى التي عرجت فيها الى الهواء على هذه الصورة . واقرب شيء الى ذلك انني وصلت مرة الى ماء جيسر من جياسر زيلندا الجديد فدفعني الى الهواء مع ما دفع من الماء

ولقد خبرت الصغائر كما خبرت الكبائر فكنت مراراً في نقط الندى و بلورات الصقيع والاغشية المائية التي تجتمع على زجاج الكوى وفي عصار الاثمار واري الازهار . وذات يوم كنت في جوف زهرة برسيم واذا بنحلة وقعت على تلك الزهرة وامتصتني مع ما حولي من الاري وطارت بي الى بيتها ووضعتني في خليتها مع غيري من ذرات العسل في بيت من الشمع مسدس الجدران فمضى عليّ هناك زمن طويل والعسل يحيط بي من كل ناحية ثم يمر بي زمن اجلي منهُ ولا بعد ان صرت ادخل عصارة قصب السكر في العهد الحديث فقد دخلت في عصارة القصب ايضاً ومررت على كل الآلات والمدد التي يمرُّ فيها ذلك العصار قبلما يصير سكراً . هذا ولنعد الى خلية النحل فاقول اني اقمت فيها الى ان جاءتني ذات يوم نحلة من النحلات العاملات واخذتني وقدمتني طعاماً للملكة فاكلتني ودخلت بيضة من بيوضها ثم صارت تلك البيضة نحلة ذكراً كثير الكسل فاكلتهُ نحلة من العاملات ولسعتهُ حتى مات فبلي جسمهُ وخرجت منهُ وعدت الى الهواء

في عصر الانسان

لما ظهر الانسان على الارض انقلبتْ عليَّ شؤون كثيرة على حداثة عهدي منها ما يدعو الى السرور والحبور ومنها ما يوجب الالم والسقم اي انني عاشرت الانسان في السراء والضراء والفرح والترح

كنت يوماً في يوم نبت من الصبر المكسيكي الذي يصنع اهالي المكسيك منهُ سكراً فقطفهُ رجل وعصرهُ ووضع عصيرهُ في زق من جلد الخنزير وارسلهُ الى مدينة مكسكو فصُنع منهُ السكر الذي يلتهم بُلكو فشربني رجل سكريي ولا داعي لبقية القصة . والمسكرات كثيرة مختلفة والماء توامها كلها لانهُ هو الجزء الاكبر منها وقد دخلت في اشربة عديدة ولكن البلكو اقبحها كلها

ولقيت في العين ما لا يحمد : كنت مرة في نهر فاستقاني بعض السقاة ووضعوني في خابية سفينة من سفن القرصان ثم صبت في اناء قذر واضيفَ اليَّ الشاي وشُربتُ حارة

اقول والشيء بالشيء يذكر ان اشد حر لتيته كان وقت احتراق مدينة شيكاغو فاني كنت في بحيرة مشيغان واذا بانبوب طويل غاص في البحيرة ومتص الماء منها فصعدت فيه مع غيري من ذرات الماء ثم ضخنا على النار المتقدة وكانت حرارتها شديدة لا تطاق اشد من حرارة الجيايسر في زيلندا الجديدة لكنني تمزيت عما اصابني من الحر بانني ساعدت في اطفاء تلك النار جهدي

وكنت في يوم آخر في مكان من امكنة الاستشفاء بالماء فشربتني عادة حسناء ولكن لم تلذ لي الاقامة في جوفها اكثر مما لذت لي اقامة في جوف القرد والحوت

الوداع

انا عنوان الحياة فان الماء هو العنصر الاهم في كل الاجسام الحية يتحد بالتروجين فتتكون منهُ البروتوبلازم التي تتألف منها اجسام كل الاحياء فلولانا نحن معاشر ذرات الماء ما وجد نبات ولا حيوان ولا طعام ولا شراب . ولولانا ايضاً ما وجدت الانهر والبحار والبحيرات ولا شيء من محاسن الطبيعة

ونحن نحن محن العمل علينا تجري الجواري المنشآت تحمل البضائع والاقوات . نحن البخار الذي يحرك الآلات البخارية والماء الذي ينصبُّ من الشلالات ونبث تشققُ الصخور ولتفتت الحجارة ولتمهّد الجبال وتنتقل الى قلب البحار

وانا لست خالدة بل شأني شأن غيري من الاجسام الحية عرضة للموت والانحلال ولكن الجواهر التي يتركّب منها جسمي خالدة لا تفنى . وحتى الآن لم اتجنّ اليها مع ان انحلالي في الامكان وقد اوشكت ان اصل اليه لما قذفت فوق نيران شيكاغو وكذلك لما كانت الصواعق تصعق على مقربة مني لكنني عشت حتى الآن ملايين كثيرة جداً من السنين فلا عجب اذا سُبِّخ لي في الاجل ملايين اخرى فاني لا ازال فتية لا اشعر بشيء من الضعف . ويتعذّر عليَّ ان اعرف اين اكون بعد مئة مليون سنة فقد اعرج من الارض واتحلى فلكها واتيه في الفضاء الى ان اصل الى عالم آخر الاّ ان ذلك بعيد واقرب منهُ ان ابقى في الارض . ويمكنك ان تتصورني في غيوم السماء ونقط المطر ورقع الثلج وفي اعماق البحر وضباب الصباح وكاس الخمر ودموع الوداع

امرأة تمتحن اللبن تعرف كم فيه من السمن

امرأة تمتحن الماء مفتشة عن الميكروبات

امرأة تمتحن جوز الهند تعرف كم فيه من الدهن

مقتطف غشت ١٩١٧.

راجع الصفحة ١